التواصل مفهوم شرعي أصيل وتنظيم للعلاقات

قراءة في التفسير الكي لسورة النساء

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

جامعة قطر، كلية الشريعة، قسم الدراسات الإسلامية
s١٤٣٥y@gmail.com
https://orcid.org/٠٠٠٩-٠٠٠١-٨٢٩٦-١٢٩٩

محاور سورة النساء والترابط المحكم

تعالوا نر الدر النضيد الذي يصَّعَّد من سورة النساء من خلال محاورها، وكيف تبني التواصل الإنساني بصورة مدهشة، وتقدم هداياها للعالم، وبصائرها كل من يبحث عن مصالح البشرية:

فبعد تَفَكُّرٍ متكرر، وتدبرٍ استغرق نحو خمس سنوات ساقني حادي التدبر إلى مراجعاتٍ متعددة في السورة، وهذه المراجعات اقتضت تعديلاتٍ كثيرةً في ترتيب محاور السورة اعتمادًا على الإحكام في تتابع آياتها في محاولةٍ للوصول إلى الأكمل في إدراك عمود السورة و(الصورة المتكاملة للسورة التي اقتضت ذلك التسوير).

حين تدرك النفس الإنسانية الصورة الكلية للسورة، وعمودها الذي يسري بين جميع محاورها هناك.. هناك تبدو لك السورة في أحسن نظام، وأقوى إحكام.

فماذا أقول لك؟

لعلك تظن بادئ الرأي أن السورة جمعت أشتاتًا من الآيات والمواضيع المتفرقة دون رابطٍ واضحٍ بينها، فإن كنت مؤمنًا بالقرآن فَإنك ستكتفي فقط بالتذكر المحض وحده، والإفادة من هذه المواضيع المختلفة دون أن تكلف نفسك عناء السؤال عن سبب (تسوير السورة) الذي يمنحها شخصيتها المتميزة، أما من أراد السبيل الحقيقي فإن قلبه يتيقن بأن تقسيم القرآن المجيد إلى سور تقسيم توقيفي إلهي لحكمة بالغة.

هنا لا بد من المصابرة التدبرية لمعرفة سبب (تسوير السورة)، ولذا يهيجك الله جل ذكره لتتدبر القرآن في هذه السورة، فيقول لك: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

اسمح لي أن أُقَرِّرَ لك إن سلكت معي هذا السبيل أنك ستشعر بالاندهاش الشديد وأنت تلمس انسياب

/Almajeedye
/Quranok.com

الخريطة المكونة لسورة النساء؛ إذ ترى السورة ينتظمها عمودٌ واحدٌ واضحٌ يربط بين آياتها وفق رسمٍ تفصيليٍّ متقنٍ، فيظهر في السورة جميع ما تحتاجه الصورة المتكاملة، إذ يبصرنا الله في هذه السورة مِنَّتَهُ العظمى بـ (بث الحياة الإنسانية)، وتنظيم حقوق أفرادها بالقسط، وليتم ذلك بصورةٍ مكرمة، ولقد ألقاني يَمُّ التدبر في آخر الرحلة إلى أن هذه السورة تكونت من مقدمةٍ وسبعة محاور وخاتمة:

فالمقدمة: تقرر أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بثَّ الحياة الإنسانية) (النساء: ١).

وتجد هذه المقدمة في آيةٍ واحدةٍ هي الآية الأولى من سورة النساء لكنها ضمت بكفاءة عالية مجموعة من أهم الأسس التي تكفل بث الجنس الإنساني وفق مبدأ القسط، وتبهرك هذه الآية بأنوارها الجاذبة حتى اختزلت ألفاظها تلك المعاني الثرية، **وهذه الأسس هي:**

الأساس الأول: عالمية الخطاب الإسلامي ليكون الخطاب الأكثر أهلية للمحافظة على بث الحياة الإنسانية، وليقيم التفاعل الإيجابي الصالح بين أبناء الإنسانية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، إنه خطاب عالمي.. لم يكن الإسلام منذ آدم عليه السلام دينًا عنصريًا لجنس أو قبيلة أو فئة أو أسرة، والمخاطبة العالمية تقتضي النسبة الإنسانية لا العقدية، فلم يقل: يا أيها المؤمنون والكفار.

الأساس الثاني: الرؤية القرآنية للحقوق قائمة على أساس النظر إلى المصلحة الإنسانية في الحياتين: (الفانية، والباقية)، ويُبَصِّرُنا بذلك أن هذا الخطاب العالمي العام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لم يكن إلا في بداية سورتين: النساء التي أعلنت للعالم بداية الحياة الدنيوية البشرية، والحج التي أعلنت للعالم بداية الحياة البشرية الأخروية.

الأساس الثالث: التقوى صِمام الأمان لإعطاء الحقوق لأهلها، وإقامة القوانين بالعدل في العلاقات الأسرية والبشرية، ومبدأ التقوى ينمي المراقبة الإنسانية، والضمير البشري، ويقيم الأخلاق الحقيقية، ويحمي من التلاعب بالقوانين؛ فقد كرر الله ذكرها مرتين في آية المقدمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾، والتقوى تعني اتقاء المخافات المستقبلية القريبة والبعيدة الناتجة عن حساب الله لعباده.

الأساس الرابع: تكريم المرأة، وبناء الحياة البشرية على هذا التكريم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى جده:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء:١)، حيث خُلِقت إما من نفس الرجل وإما من جنسه، فمن ذا الذي يمكن أن يحتقرها كما فعلت الجاهليات المختلفة، وهنا تُبْصِرُ القصةَ الحقيقيةَ لبدء الخلق الإنساني، وتُقَدِّمُ للبشرية النور الصادق لبداية وجودها، وتساعد القوى الظلامية على التوقف عن الفهم الخاطئ للتاريخ، والاتباع الأعمى لخطوات الشيطان، فقد بدأ مفهوم الأسرة المكونة من الزوج والزوجة مع بداية البشرية، فتدمغ الآيةُ الباطلَ الذي عبرت عنه القصص المزيِّفة للتاريخ.

الأساس الخامس: منح الله للبشرية الحق في (بث الجنس الإنساني في الأرض زمانيًا ومكانيًا)؛ وكلمة (بثَّ) معناها: أظهر وفرَّق ونشر، وهي بذلك تدل على رباعية حقوقية متكاملة هي: (الإظهار) بأن خلقهم من العدم، و(الاستقرار)، و(الإعمار)، و(التكاثر والانتشار)، فالله -تعالى مجدُه- أعطى الإنسانية حق الحياة فخلقها من أصلٍ واحدٍ، وأقام مبدأ الوحدة الإنسانية وفق العدل الرائد لا وفق المبادئ العنصرية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)، فاقتضى ذلك وجود حقوق وواجبات متبادلة بين كل بني الإنسانية، ويجب تنمية العاطفة المتراحمة المتساوية بينهم، وأن يؤسس مبدأ التفاعل الإنساني على العدل، والأخوة الإنسانية تعني أنه يَحْرُمُ ويُجَرَّمُ التمييز العنصري أما التفاوت النسبي فهو للتعارف، ويقرر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى الحقوقي الإنساني العظيم بعد أن أبصر الأخوة الإنسانية في هذه الآية، فيقول في بيان مشرقٍ: «جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجبٌ وجوبَ حق الأخ على أخيه».

وهنا يظهر لنا جمال المقصد الكبير الذي يقدمه لنا حديث الإسراء في الكلام عن آدم عليه السلام؛ إذ يروي النبي ﷺ في «صحيح البخاري» (٣/ ١٢١٧):

«فلما علونا إلى السماء إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شماله بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قلت: من هذا يا جبريل؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وعن شماله نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شماله بكى».

فمن أعظم مقاصد الحديث بيان الصلة بين آدم عليه السلام وبنيه إلى آخر ابن منهم، وهو ما ينبغي أن يعكس الصلة بين أبنائه كذلك.

الأساس السادس: صلة الأرحام القريبة والبعيدة علامة على صدق تدين الإنسان، وبناء النظام البشري السوي ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ (النساء: ١).

الأساس السابع: تنمية درجة الإحسان في النفوس البشرية لتراقب ربها في أداء الحقوق الإنسانية لأهلها، فيجتمع القضاء والديانة في الالتزام بالمبادئ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

الأساس الثامن: يرتبط البث التكريمي للحياة الإنسانية بالإيمان بالله الواحد، فهو الذي خلقها وبثها، وإنكار وجود الله إعلان حرب على الإنسانية ذاتها.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المقدمة والمحور الأول).

تحدثت المقدمة عن أسس بث الحياة الإنسانية، ولكن كيف تبدأ الحياة الإنسانية؟

إنها تبدأ بالطفل الذي تنجبه المرأة، فهل للحياة الإنسانية أن تستمر أو تنتشر إذا أُهمل الطفل؟ وهل لها أن تُعَمَّر وتزدهر إذا أهينت المرأة وهي تمثل المركز الحقيقي لحضانة البشر وبثهم في الأرض؟ وهنا يأتي **المحور الأول** ليصحح الأوضاع الجاهلية القديمة والمعاصرة حول حقوق الطفل والمرأة، ففصل لنا هذا المحور الكلام عن:

المحور الأول: التنظيم الإلهي لأموال الأطفال (وخاصة اليتامى) والنساء تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية (النساء:٢-١٤) «بإدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث».

البشرية تتكون من أربع أسرٍ أساسية:

الأسرة الأولى: الأسرة المركزية، وتتكون من الزوجين والأطفال، وهي أساس بث الحياة الإنسانية.

الأسرة الثانية: الأسرة المتوسطة، وتتكون من ذوي القربى والأرحام، وأولهم الوالدان العظيمان اللذان

جعلهما الله أصلًا لوجود الأولاد ذكورًا وإناثًا.

الأسرة الثالثة: الأسرة الإنسانية العامة.

الأسرة الرابعة: الأسرة المؤمنة، وهي أسرة خاصة من الأسرة الإنسانية العامة تتكون من جميع المؤمنين والمؤمنات الذين قال الله عنهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠)، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، وقال عنهم في هذه السورة: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ (النساء: ٣٣)، ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ (النساء: ٢٥)، وهذه الأسرة هي معيار الصلاح والسعادة للأسر الثلاث، فعندما تطبق بصائر المعرفة القرآنية تُلهِمُ الأسر الثلاث الأخرى النور المبين الذي يُخرِجُ هذه البشرية البائسة من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والسلم، ويهديها سبل السلام في التفاعل مع الحياة.

وحتى يتم بث الحياة الإنسانية ينبغي أن توجد الأسر الثلاث الأولى، وتقوم الأسرة الرابعة -إن وجدت في صورتها النموذجية- بمساعدة الأسر الثلاث على البث الحقيقي العادل للبشرية في جوٍّ من السلام والعدل، وقبل البدء بالكلام عن الأسرة المركزية وتكونها لا بد من الكلام عَمَّن سيكون الأسرة المركزية، فكان هذا المحور معقودًا لحماية الطفل ذكرًا كان أو أنثى، وحماية المرأة وهي الطفلة التي تكبر لتكون امرأة راشدة لكنها ربما تواجه بقوانين جاهلية فرضها الرجال تضطهدها، وكذلك ينبغي إظهار حقوق السفهاء ليكون علامة على البناء في الحياة الإنسانية لا على الهدم بسوء تفكيرهم، وهنا تنهمر عليك فيه القطرات الندية من تشريعات الحقوق المالية للفئات المستضعفة في المجتمعات: (الأطفال وخاصة اليتامى، والنساء، والسفهاء الذين لا يملكون الرشد للتصرف في الحياة)، كما تجد فيه إدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث، وترى هذا المحور في الآيات (٢-١٤):

يُبْرِزُ لك القسم الأول من هذا المحور حقوق الطفل على المجتمع حوله، وذلك لأن الطفل يمثل أضعف المراحل الإنسانية، فمنحه الله حقوقه في الرعاية وتكوين الثروة المالية التي يكتسبها عن طريق الإرث، ويتداخل

القسم الثاني مع القسم الأول لشدة العلاقة حيث يبين الله جل ذكره فيه حقَّ المرأة في الزواج، ويثبت ذمتها المالية المستقلة لتقوم بمهمتها في رعاية الطفولة والجنس الإنساني، وهنا يأتي القسم الثالث حيث يفصل الله حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة الأموال في المجتمع حتى لا يؤذوا أنفسهم أو مجتمعهم ويكونوا عامل تخريب فيه.

أما وقد جعل الله الإرث هو السبب الأول لتكوين الثروة، فقد استدعى ذلك أن يفصل الله منظومة الإرث لتحقق أهدافها في رعاية الإنسانية، وهنا يأتي:

القسم الرابع: الذي يظهر القوانين العامة للحقوق الإنسانية عند تكوين الثروة من الإرث والانتصار للمضطهدين فيه، بينما يتولى:

القسم الخامس: إبراز الحقوق الإرثية التفصيلية التي تضمن التكامل، وأثرها العظيم في بث الحياة الإنسانية.

وهنا تظهر الفلسفة القرآنية المدهشة في جعل الإرث وسيلة لبث الحياة الإنسانية.. عُدْ من جديدٍ لفلسفة المحور الأول حيث تشرق السورة على العقول الإنسانية بآلائها.

كيف يتحقق البث للحياة البشرية دون أن تكون الأجيال الجديدة من الأطفال على قيد الحياة؟ وكيف يتحقق البث للحياة البشرية إن لم يحيَ الأطفال الحياة الكريمة اللائقة؟ وكيف لهم أن يحيوا حياة كريمة دون وجود مالٍ يعينهم على الرعاية والعناية والتأهل لاستقبال الحياة؟ وكيف يجدون مالًا وهم ليسوا تجارًا، ولا يستطيعون مواجهة الحياة؟ وكيف يمكن أن يوجدوا دون أن يسبق ذلك وجود النساء اللاتي يملكن حق الزواج وفق ذمة مستقلة نفسيًا وماليًا؟

من أجل ذلك كتب الله على الإنسانية في **المحور الأول حقوق الأطفال والنساء**، وإدماجهم في منظومة الإرث وفق نظام عادلٍ مدهش، فالإرث أول وأعظم سبب لتكوين الثروة دون تعب.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الأول والمحور الثاني):

أسست البصائر القرآنية العالية في هذا المحور حقوق الطفل، والمرأة في الأمور المالية وخاصة ما يتعلق

منها بالزواج لتكون لهم الذمة المستقلة، ولا بد من أن يكون ذلك ضمن إظهار المنظومة المالية لكل فئات المجتمع.. بذا ترى في المحور الأول حقوق الطفل مكفولة، وتجد للمرأة ذمة مالية مستقلة مكرمة، وهما أساس الأسرة، فالطفل هو أساس تَكَوُّن الأسرة، والمرأة هي الزوجة التي جعلها الله ركن ظهور الحياة البشرية، وتربيتهم وتكاثرهم، وبَثِّهم الزماني والمكاني، ولا بد من ردِّ الاعتبار لهما وإنقاذهما من الاستغلال المضطهد الذي سلطته عليهما الأنظمة الجاهلية القديمة والمعاصرة.

أما والأمر كذلك فقد آن الأوان لمعرفة كيف يمكن أن تتكون الأسرة المركزية المكونة من الزوج والزوجة وفروعهما من الأطفال، ويمكن إدخال أصولهما من الآباء والأمهات إلا أن الأقرب جعل الآباء والأمهات ضمن الأسرة المتوسطة فهي تتألف من ذوي القربى.. وهنا ترى الانتقال طبيعيًا منطقيًا من المحور الأول إلى الكلام عن كيفية بناء الأسرة التي تشكل النواة الأساسية للبث الإنساني، واستقراره وتماسكه، وهنا يأتي **المحور الثاني**، ليحدثك عن:

المحور الثاني: التنظيم الإلهي لمؤسسة الزواج (الأسرة المركزية) تقصيدًا لانتشار الحياة (النساء:١-٢٥).

ظهر ذلك في القرآن والسنة بصورة رائعة بديعة مدهشة، وتعال لتنظر إلى ملخص تنظيم اللقاء والفراق الذي ظهرت فيه سورة البقرة على أجمل أوجه الحسن الحقوقي والقانوني المدهش:

هندسة بناء الآيات في الخريطة الكلية لبصائر الوفاق والفراق الزوجي في سورة البقرة

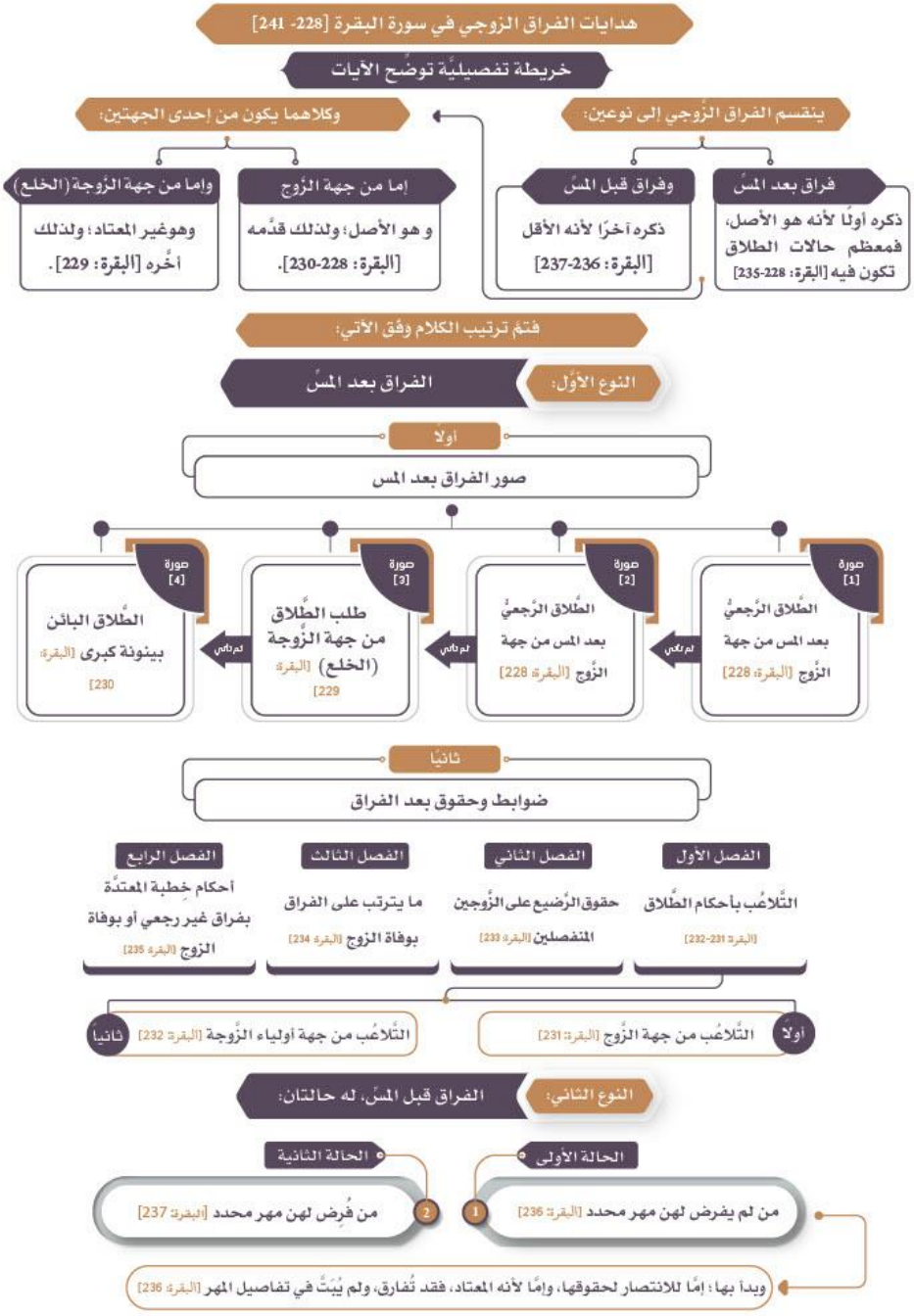
هدايات الفراق الزوجي في سورة البقرة [228- 241]
خريطة تفصيليَّة توضِّح الآيات
ينقسم الفراق الزَّوجي إلى نوعين:
فراق بعد المسّ
ذكره أولًا لأنه هو الأصل، فمعظم حالات الطلاق تكون فيه [البقرة: 228-235]
وفراق قبل المسّ
ذكره آخرًا لأنه الأقل [البقرة: 236-237]
وكلاهما يكون من إحدى الجهتين:
إما من جهة الزَّوج
و هو الأصل؛ ولذلك قدَّمه [البقرة: 228-230].
وإما من جهة الزَّوجة (الخلع)
وهوغير المعتاد؛ ولذلك أخَّره [البقرة: 229].
فتمَّ ترتيب الكلام وفْق الآتي:
النوع الأوَّل: الفراق بعد المسّ
أولًا
صور الفراق بعد المس
صورة [1]
الطَّلاق الرَّجعيُّ بعد المس من جهة الزَّوج [البقرة: 228]
لم تكفِ
صورة [2]
الطَّلاق الرَّجعيُّ بعد المس من جهة الزَّوج [البقرة 228]
لم تكفِ
صورة [3]
طلب الطَّلاق من جهة الزَّوجة (الخلع) [البقرة 229]
لم تكفِ
صورة [4]
الطَّلاق البائن بينونة كبرى [البقرة: 230]
ثانيًا
ضوابط وحقوق بعد الفراق
الفصل الأول
التَّلاعُب بأحكام الطَّلاق [البقرة 231-232]
الفصل الثاني
حقوق الرَّضيع على الزَّوجين المنفصلين [البقرة 233]
الفصل الثالث
ما يترتب على الفراق بوفاة الزوج [البقرة 234]
الفصل الرابع
أحكام خِطبة المعتدَّة بفراق غير رجعي أو بوفاة الزوج [البقرة 235]
أولًا
التَّلاعُب من جهة الزَّوج [البقرة: 231]
ثانيًا
التَّلاعُب من جهة أولياء الزَّوجة [البقرة 232]
النوع الثاني: الفراق قبل المسّ، له حالتان:
الحالة الأولى
1
من لم يفرض لهن مهر محدد [البقرة 236]
الحالة الثانية
2
من فُرِض لهن مهر محدد [البقرة 237]
ويبدأ بها؛ إمَّا للانتصار لحقوقها، وإمَّا لأنه المعتاد، فقد تُفارق، ولم يُبَتَّ في تفاصيل المهر [البقرة 236]

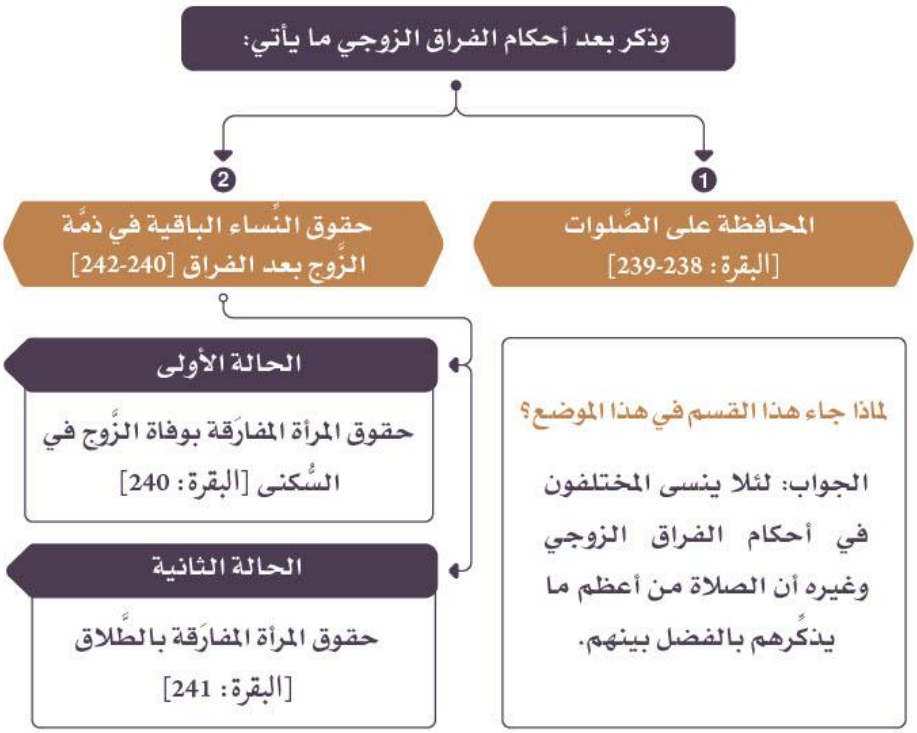

وفي سورة النساء بدأ المحور **بالقسم الأول** الذي أبرز أهمَّ القوانين التي تحمي نظام الزواج من الخيانة، وتعيد تأهيل الخونة المتجاوزين لحدود النظام الأسري والسلامة المجتمعية، وذلك لأن هذه القوانين تمثل الوقاية الأساسية من تدمير الأسرة عبر تجاوز نظام الزواج الشرعي، وإعادة التأهيل يشمل التأديب والفرصة للتوبة وإعادة

بناء الحياة.

لماذا بدأ المحور الثاني بالكلام عن الخيانة للنظام الأسري؟

هذا من عظمة الترتيب القرآني وإعجازه، فإن الله جل ذكره أراد أن يحمي مفهوم الأسرة قبل نشوئها.. كيف يمكن أن تتكون أسرة حقيقية والزوج فيها يخونها، فيتخذ له خليلات، والمرأة تخون فتتخذ لها أخدانًا؟ فالأسرة أساس بث الحياة الإنسانية، فلو تعرضت الأسرة المركزية للخيانة من أحد طرفيها أو من كليهما لدمرت الحياة البشرية.. لا نحتاج إلى إثبات ذلك، فالواقع المعاصر للحضارة المادية المتفوقة يعطيك البرهان المادي المنظور.. إنها حضارة الشيخوخة حيث مستوى وجود الأسر المركزية يزداد ضعفًا، فكثير من الرجال فيها يكتفون بالخليلات (girl friend)، وكثير من النساء يكتفين بالأخدان (boy friend) وربما مال بعضهم إلى مماثله.. فما النتيجة؟ أن تستغيث بعض هذه الدول، وتبحث عن المهاجرين لإبقاء اقتصادها قويًا، ولحمايتها من الفناء التدريجي.. من أجل ذلك بدأ هذا المحور بهاتين الآيتين: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥، ١٦).

ثم جاء **القسم الثاني** ليظهر حقوق الزوجة في المعاشرة، وليثبت حقوقها المالية التي تكونت بسبب المعاشرة، وليحذر الزوج من التعسف في التعامل معها، والكلام هنا يختلف عن التفصيل الذي سبق لك أن وجدته في القسم الثاني من المحور الأول حيث كان هناك عن حق المرأة في الزواج وذمتها المالية المستقلة، بينما الكلام هنا كان عن حقوقها بعد الزواج.

ثم كان **القسم الثالث** الذي كان عن حق أصيل من حقوق البناء الأسري وهو معرفة المحرمات من النساء في الزواج، ويحق لك أن تلاحظ أن المحور أبرز أولًا القوانين الحامية لتداعي الأسرة بسبب الخيانة الزوجية، ثم ذكر في القسم الثاني حقوق المرأة في المعاشرة وحقوقها المالية بسبب المعاشرة، ثم بين في القسم الثالث: من يحرم الزواج منهن لتنظيم الإنسانية وفق العلم الإلهي بالطبيعة الجسدية الفسيولوجية والنفسية والعقلية

حتى تتكون أنواع الأسر الثلاث.

وأبرز **القسم الرابع**: حقًا جديدًا من حقوق البناء الأسري، وهو معرفة من يجوز الزواج بهن (النساء:٢٤-٢٥)، بعد أن تم معرفة من يحرم الزواج بهن، وهكذا نشأت الأسرة المركزية في هذا المحور.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الثاني والمحور الثالث):

بعد أن تكونت الأسرة في المحور الثاني يأتي المحور الثالث ليبين كيفية الرعاية للأسرة المركزية ماليًا ونفسيًا، وكيف يمكن حمايتها من المشاكل المغايرة لخيانة نظام الزواج أي من المشاكل التي تحميها من النشوز والشقاق، وكيف ينشأ من خلالها الأسرة المتوسطة (الموالي-ذوو القربى)، وكيف نتعامل مع الأسرة الإنسانية الكبيرة، وهكذا تسير بنا بصائر المعرفة القرآنية في هذه السورة متدرجة لتبين (بث الحياة الإنسانية) بالقسط، واستحق هذا المحور أن يكون عنوانه:

المحور الثالث: التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية (النساء:٢٦-٤٣).

وفيه: تنظيم الأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين الموارد المالية والنفسية للتماسك الأسري.

هنا تتعرف إلى الحصون التي تحفظ الاستقرار الأسري، وتقيم العلاقة المتوازنة بين الأسرة المركزية والأسرة المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة، وهذه الحصون تبين المصداق الحقيقي لقوله جل ذكره في المحور الثاني: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ (النساء: ٢٤) فوصف الرجال بأنهم محصنين من خلال تأسيس الأسرة القائمة على الزواج الشرعي، ووصف النساء كذلك بالإحصان فقال: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ (النساء: ٢٥)، ووصف الفتيات المؤمنات بذلك يجعل سائر المؤمنات أولى بوصف الإحصان..

فما الحصون التي تحرس الأسرة المركزية، ، فيُحصِنُ بها الرجل نفسه وزوجه، وتُحصِنُ بها المرأة نفسها وزوجها، وبها يُحافَظُ على التماسك الأسري، ويتحقق هدف بث الحياة الإنسانية؟

الحصون التي تحفظ الاستقرار الأسري

يذكر الله في هذا المحور تسعة حصون:

الحصن الأول: إدراك الرحمة الإلهية في التشريعات القرآنية لحماية الحياة الإنسانية، حيث يُظهِرُ الله لك المقاصد الكلية العظمى للتشريعات الإلهية التي تنظم الواقع الأسري، والمجتمعات البشرية (النساء٢٨-٢٦).

الحصن الثاني: التجارة وسيلة الكسب المالي المشروع، والبعد عن الاستثمار الممنوع لرعاية الأسرة المركزية والمتوسطة والعامة (النساء:٢٩).

الحصن الثالث: المحافظة على الإنسانية من أن تؤذي نفسها جسديًا أو عقليًا أو نفسيًا، وحمايتها من اليأس أو كبائر الذنوب المدمرة (النساء: ٢٩-٣١).

الحصن الرابع: الإدراك النفسي والعملي لطبيعة الحياة التكاملية بين الرجال والنساء؛ فالحياة ليست صراعًا بينهما، ولذا يجب نبذ التمني المذموم عند الجميع، وتنمية الطموح لنيل الفضل الإلهي (النساء:٣٢).

الحصن الخامس: الاهتمام بالأسرة المتوسطة المكونة من الوالدين وذوي الأرحام والذين تم التعاقد معهم على النصرة والولاء (النساء: ٣٣).

الحصن السادس: إدراك القوانين المنظمة لإدارة شؤون الأسرة وحمايتها لقاءً ونزاعًا، وقيام الرجل بتحمل مسؤولياته، ومعالجة المرأة الناشز التي تُهمل مسؤولياتها (النساء: ٣٤-٣٥).

الحصن السابع: القيام بحقوق الأسرة الإنسانية المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة (النساء:٣٦).

الحصن الثامن: الحذر من الصفتين اللتين تدمران التماسك الأسري، وتقضيان على بث الحياة الإنسانية، وتَحْطِمان النظام الاجتماعي، وهما الفخر والخيلاء، ومعالجة نفسيات أصحابها (النساء:٣٧-٤٢).

الحصن التاسع: الاستمتاع الحقيقي بالصلاة؛ لأنها تمنع حالة السكر العقلي المدمر، وتحمي من الوقوع في خطيئة منع الحقوق الإنسانية، وذلك بتعظيم الصلاة وأماكنها، فالصلاة المعظمة من أقوى أسس بث الحياة الإنسانية (النساء:٤٣).

وهنا ترى التنظيم الإلهي للأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة)، وتقنين أسس الموارد المالية والنفسية والعملية للحفاظ على التماسك الأسري.

لمعةٌ في جلال الإحكام في النظم القرآني في هذا المحور:

ويُخْتَمُ هذا المحور بالحصن التاسع الذي يذكر الله فيه حق البشرية في معالجة نفسها بالاستمتاع بالصلاة؛ فيقول تعالى جده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣).. وهنا قد ينبعث المشككون في النظم القرآني، فيقولون: ذكر (منع قربان الصلاة حالة السكر) دليلٌ واضحٌ على عدم تناسق آيات القرآن، وبيانٌ ظاهرٌ على تفكك نظمه، فما علاقة هذا الموضوع بما قبله وما بعده؟ ما علاقة هذه الآية بسورة النساء؟ لماذا لم تذكر في سورة المائدة مثلا؟ ما علاقة ذلك برعاية الأسرة؟

فاستمتع هنا بتأمل إحكام النظم القرآني -أيدك الله- فذكر منع قربان الصلاة حالة السكر ليس إلا دليلًا واضحًا على إحكام النظم القرآني، وسبيلًا مبينًا على غزارة المعاني التي تنثال من ألفاظه.. فإن تساءلت عن الاتصال بين هذه الآية وموضوع السورة (بث الحياة الإنسانية)، فالأمر واضحٌ؛ إذ إن الصلاة تمنع حالة السكر العقلي المدمر، وتحمي من الوقوع في خطيئة منع الحقوق الإنسانية، فالصلاة أعظم مقام يمكن أن يقوم فيه الإنسان بتصفية عقله، وتحتاج الأسرة لوجود حسٍّ المسؤولية فيها، ولا بد أن يقوم ذلك على صفاء عقلٍ لا انفعال عاطفة متشنجة في لحظةٍ من اللحظات سواء كانت من جهة المرأة أم من جهة الرجل، والمحافظة على الصلاة واللجوء إليها من أعظم المعينات على رعاية الأسرة المركزية، والمحافظة على العلاقات الإنسانية بالنسبة للأسرة الإنسانية العامة.

وكما رأيت ذكر الصلاة بصورةٍ أخرى أثناء الكلام عن قضايا متعلقة بالأسرة في سورة النساء فإنك قد رأيت ما يشبه ذلك أثناء الكلام عن طبيعة العلاقات البشرية بعد الطلاق في سورة البقرة عند قوله جل ذكره: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، ففي سورة البقرة وابتداء من قوله تعالى جده: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ ﴾ (البقرة: ٢٢١) تفصيل تشريعي مدهشٌ للِّقاء بين الزوجين، والفراق بينهما بأنواعه المختلفة، وقبل أن يختم تلك الأحكام الثرية التي استغرقت

أكثر من أربع صفحات من القرآن المجيد تأتي هذه الآية المفاجئة ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، مع أن هناك بقية في أحكام الفراق الزوجي؛ إذ يقول الله بعد ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ (البقرة: ٢٤٠).. ألا يحق لك أن تبحث عن الأسباب الكامنة وراء إدخال موضوع الصلاة في هذا الموضع؟

من أسباب ذلك أن تلفت التربيةُ القرآنيةُ نظرَنا إلى أن إدارة الشؤون الأسرية لقاء وفراقًا يحتاج إلى صفاء عقل، كما أن الله ذكر البخلاء والمرائين قبل أن يمنع من قربان الصلاة حالة السكر هنا ليحذرهم أن تُسْكِرهم شهواتهم عن الواجب الإنساني الذي فرضه عليهم الله جلَّ شأنه، فالسكر بالمال، والسكر بشهوة الذكر والترؤس، والمراءاة لجذب إعجاب الجماهير، والمراءاة بالأعمال البطولية.. كل ذلك يدل على إغلاق العقل كما يغلق الخمر العقل، وكما يغلقه النوم، فحرَّم الله –تعالى جده– أن يقرب أحدٌ الصلاة وهو سكران أي مغلق العقل، وكذلك لا تستطيع أن تدير أمورك الحيوية في الأسرة والوزارات والإدارات وأنت مغلق العقل، فهذا تفكيرٌ حول علاقة هذه الآية المباركة في تكوين الأسر.

هكذا ترى أن الأقسام السابقة تظهر –بادئ الرأي– أنها مواضيع متفرقة متباينة لكنك تجدها عند التدبر مجموعة في لحمة واحدة تضمها صورة متكاملة، وترى فيها عَظَمة القرآن وقوة إعجازه.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الثالث والمحور الرابع):

وصفت لنا المحاور السابقة تكون الأسرة المركزية الأساسية، والمتوسطة، والعامة، ووجدتَ فيها تنظيمًا للحياة الإنسانية لتكون قابلةً (للبثِّ) الذي يعني الاستقرار والانتشار والإعمار، ولكن كيف يمكن تنظيم العلاقاتِ بين الأسر الأربع على وجه الدقة؟ كيف يمكن أداء حقوق الأفراد إلى أصحابها على وجه القسط؟ هنا يأتي:

المحور الرابع: التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة (النساء: ٤٤-٧٠).

وهذا المحور تمت صياغته بصورة مبتكرة، تكون من خمسة أقسام، فثلاثة أقسام منها كأنها أطراف مجنحة تمثل عدوَّين مضادين للوسط.

فالقسم الأول يمتد في الآيات (النساء:٤٤-٤٦) حيث عرفنا الله فيه بالصنف القيادي الأول الذي يمنع الإنسانية من حقوقها، ويحرص على تدمير البشرية باللغو في الرسالة الإلهية (النساء:٤٤-٤٦).

وأما **القسم الثاني** فذكر رَبُّنا فيه أعظم جنايات أهل الضلالة والإضلال في التعدي على حقوق أنفسهم وعلى سائر البشرية، وامتد في الآيات (النساء:٤٧-٥٧).

كان هذان القسمان يمثلان الجناح الأول المضاد لمركز المحور الذي يجليه القسم الثالث:

القسم الثالث: أسس الإدارة الراشدة التي تضمن أداء الحقوق الإنسانية إلى أصحابها، ويمتد هذا القسم في الآيات (النساء:٥٨-٥٩)، وهذا القسم يعرض لنا عرضًا مثيرًا الأسس الدستورية والتنفيذية لقيام الإدارة الراشدة بأداء الحقوق إلى أهلها.

وإذا كان الجناح الأول المضاد للإدارة الراشدة يمثل العدو الأجنبي المتربص مع إمكانية أن يتبعهم بعض من ينتسب إلى القوى الصالحة جهلًا أو نفاقًا فإن الجناح الثاني المضاد يمثل العدو المحلي الذي يصد عن الإدارة الراشدة صدودًا، وهو الذي يُظهره لنا القسم الرابع حيث يعرفنا بقوى النفاق التي تمثل الصنف الثاني الذي يمنع قيام الإدارة الراشدة، ويمنع الإنسانية أن تنال حقوقَها، وتتنعم بما هو خيرٌ وأحسن تأويلًا، وامتد هذا الصنف في الآيات (٦٠-٦٥).

وأمام الكيد الشديد الذي يجمعه الصنفان للقيادة الراشدة، وأما لغوهم في الرسالات الإلهية، وصدهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء بالرسالة الخاتمة يُختَم هذا المحور بما يُرَغبُ البشرية ترغيبًا تحفيزيًا مُشَوِّقًا لتطبيق التنظيم الإلهي للحياة الإنسانية، ويبرز لنا ببهجة من القول الصادق في القسم الخامس ما يُوَضِّح

الثمار العظيمة لتطبيق الأوامر الإلهية، وأداء الحقوق الإنسانية وترك تحكيم الطاغوت، وامتد هذا القسم في الآيات (٦٦-٧٠).

وقد تتساءل لماذا هذا الاختصار المكثف فيما يتعلق بالإدارة الراشدة على عكس قسط كل إنسان في تكوين الثروة من الإرث؟

لأن المراد وضع الأسس الدستورية العامة للإدارة الراشدة حيث ترجع التقنيات التفصيلية بعد إلى الاجتهاد البشري الذي يأخذ بعين الاعتبار التطبيق النبوي، والتطبيق الراشدي في عهد الخلفاء الخمسة للنبي ﷺ (أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن).

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الرابع والمحور الخامس):

هاأنت ذا ترى البناء الزاهي العظيم تشيده سورة النساء.. تراه يكتمل رويدًا رويدًا في صورة بهية، وقد رأيت في هذا البناء كيف تم توفير حقوق الأطفال والنساء وأفراد المجتمع لينال كلٌّ منهم حقه مكرمًا من الرعاية والعناية وتكوين الثروة، وذلك كان في المحور الأول، وبناء على ذلك قامت الأسرة المركزية في المحور الثاني، كما ظهر لنا ضمن هذا البناء المشيد في المحور الثالث: الموارد المالية المكتسبة للأسرة المركزية وأسس استقرارها النفسي، وصاحب ذلك رؤيتنا للقوانين التي تبني العلاقة المتينة بين الأسرة المركزية والأسرة المتوسطة والأسرة الإنسانية العامة.

وظهر في المحور الرابع الإدارة الراشدة التي تدير أفراد الأسر الأربع، وتعطي كل ذي حقٍّ حقه لتحقيق هدف البث الإنساني (الحياة والاستقرار والانتشار والإعمار)، وهنا يبدو لنا تساؤل كبير عن أهم استراتيجية يجب أن تتبعها الإدارة الراشدة لإقامة البث الإنساني وفق مبدأ القسط..

كيف يمكن لها فعل ذلك مع التحديات الضخمة التي تواجهها على المستوى المحلي والعالمي؟

هنا يأتي **المحور الخامس** ليفصل لك الحديث عن: **التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء٧١-١٠٤).**

المحور الخامس: التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية المستضعفين (النساء ٧١-١٠٤):

وفيه: بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي تطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر، والبحث عن أرض العدل والكرامة.

ربما تعجلت واستغربت هذه الكلمة (المدني) وتساءلت عن معناها في هذا السياق؟ أقول لك: لا تعجل، فإنما عنيت بـ(المدني) النسبة إلى مدينة النبي ﷺ؛ فهي ما سُميت كذلك إلا بعد مقدمه المبارك الشريف ﷺ، ويصور أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ذلك فيقول: «لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء»[1].. لقد أحدث النبي ﷺ تغييرًا عظيمًا في العالم، وكانت عاصمة التغيير العادل (المدينة) قد تغيرت ضياء ونورًا بمقدمه ﷺ، ومما أضاء منها اسمها، فقد تغير من (يثرب) إلى المدينة، وكأنها البلد الذي يستحق أن يسمى مدينة دون غيره.

يبدأ هذا المحور من الآية ٧١ قوله -تعالى مجدُه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ (النساء: ٧١)، فهذا المحور محورٌ طويل أخذ حيزًا كبيرًا من السورة فامتد من الآية (٧١) إلى الآية (١٠٤)، ويفصل الله لنا فيه بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن الداخلي المجتمعي والسلم العالمي، وبذلك يتم الاستقرار الأمني، ويحدث الإعمار، وينبثق الانتشار، فيتحقق بث الجنس الإنساني، فهذا محورٌ مدهشٌ يُبرهِن على الدقة التشريعية التنظيمية التي تفتح بصائر القرآن المجيد عليها أبصارنا، وينمي بصائرنا، **ولذا** انقسم هذا المحور إلى الأقسام الآتية:

القسم الأول: أهم استراتيجيات صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: استراتيجية (أخذ الحذر) لحماية المجتمع من الشرور والأخطار الخارجية، والداخلية، وامتد هذا القسم في الآيات (٧١-٧٣).

ولا تنفع استراتيجية أخذ الحذر إلا أن يردفها الإعداد العسكري والأمني المناسبان، ولذا كان **القسم الثاني**:

---

[1] أحمد (٣/ ٢٦٨) برقم ١٣٨٥٧، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير جعفر بن سليمان – وهو الضبعي – فمن رجال مسلم.

من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي: الإعداد العسكري العالي لصناعة حالة (توازن الردع)، واستخدام الحل العسكري عند الحاجة إليه لحماية المستضعفين (النساء:٧٤-٧٦).

ولكن الإعداد العسكري العالي لا يعني الاستخدام المتهور للقوة، ولا البطش بها، بل الاستخدام الحكيم العادل، وإلا فالأصل كف اليد، ولذا كان **القسم الثالث**: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: إعلان أن الأصل في الإسلام السلام (كف اليد)، وعدم الدخول في مواجهات غير متكافئة، والسلام يقتضي المواجهة عندما تكون متحتمة أمام الاستكبار المعتدي (النساء:٧٧-٧٩).

ولكنك تطرح سؤالًا ضروريًا: إن كان الأصل كف اليد والسلام، فما القوانين الحاكمة التي تردع المتآمرين الداخليين والمعتدين الخارجيين؟

إن تقلب الأحوال الدنيوية يجعلك محتارًا في تقديم نص على نص، وهنا يجعل الله جل ذكره التصرفات النبوية جزءًا من السياسة الأمنية لنهتدي بها في التعامل الحيوي، كما يحث على الاستنباط الحقيقي من النصوص الشرعية للبحث عن حلول لكل القضايا المستجدة، ومن أهم تلك القضايا كيفية التعامل مع الشائعات في مجالي الخوف أو الأمن، ولذا كان **القسم الرابع**: تطبيق قوانين توازن الردع لضبط مجالي الأمن والخوف من خلال طاعة القيادة النبوية مطلقًا، والاستنباط من التدبر القرآني وفق الفهم النبوي (النساء:٨٠-٨٧)

ودعني أنقل إليك هنا الخاتمة التي ذكرتها في آخر ذلك القسم:

الإحكام البديع لآيات القرآن المجيد في هذا الموضع:

أليست قصة رائعة أن تدرك هذا الاتصال المحكم لموضوعي الشفاعة والتحية بالجو العام المحيط بهما في السورة؟

تعال لتدرك بإعجاب الصلة الوثيقة لذكر الشفاعة والتحية في سياق الكلام عن مبدأ السلام الأمن الداخلي والسلام العالمي، فتأمل المسألة معي:

لقد ذكر الله قبل هاتين القضيتين كلامًا عن أخذ الحذر وإنقاذ المستضعفين وكف اليد، وضرورة القتال

عندما يُكتَبُ أي عندما يجب القيام به، ثم أنبأك عن أهمية طاعة القيادة النبوية، وحال المتلاعبين الذين يظهرون الطاعة للقيادة النبوية وهم يتآمرون ضد أقوال النبي ﷺ، وأخبرك كيف تتعامل مع الشائعات في مجالي الأمن والخوف، ثم أعقب ذلك كله بأن حرض النبي ﷺ على القتال عندما يجب ولو كان منفردًا.. هنا جاءت مسألة الشفاعة، وجاءت قضية التحية.

دعنا ننظر ما بعد ذلك: لقد جاء الكلام عن كيفية التعامل مع العالم بناء على كف الأيدي وإلقاء السلم وهجرة المسلمين من ديار المحاربين الوثنيين في مكة، ثم يذكر الله بعد ذلك حرمة الدماء، وحرمة قتل الآخرين ما داموا ألقوا السلام أو السلم أو الإسلام.

ومن خلال هذا السياق يتضح أن الشفاعة جاءت في موضعها البديع لتتكلم أولًا عمَّن يجعل النبي ﷺ قد شُفِّعَ بتكثير أنصاره بدلًا من أن يكون فردًا فقط، وهكذا من قام بالحق بعده، فهذا المقصد الأساسي لإيراد الشفاعة في ذلك الموضع، وبعد ذلك يمكن التوسع في إيراد قضايا الشفاعة الأخرى.

وكذلك ما يتعلق بالتحية فإنها وردت في سياق عسكري أمني، وفي أثناء الكلام عن وجود حالتي الأمن أو الخوف، وضمن محور عام يرتبط بتوازن الردع وإحلال السلام، فذكرها إنما هو لكيفية التعامل مع مَنْ يحيي المسلمين من الآخرين، فهذا المقصد الأصلي من إيرادها بدلالة السياق، ثم يدخل بعد ذلك قضايا التحية التي يذكرها علماؤنا في كتبهم لكن دون إغفال للسياق الأصلي الذي وردت فيه التحية في هذه السورة.

وعند الشعور بالوصول إلى هذا المعنى يجد المرء المدى الضخم لظهور الكتاب المجيد مفصلًا حسب الإحكام الحق، ولا يملك إلا أن يردد ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

ولكن القسم السابق لا يقدم لك إجابات مفصلة حول أقسام العالم بالنسبة لكف اليد أو للمواجهة والالتحام بل رأيت فيه التحريض المدهش على استخدام الحل العسكري والأمني حتى قال الله فيه: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ (النساء: ٨٤)، وهنا يأتي القسم الخامس ليوضح لك أقسام العالم حولك بالنسبة لكف اليد وإلقاء السلام أو العكس.

القسم الخامس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: تقسيم العالم حسب إلقاء

السلم، وكف الأيدي، وعدم التعاون مع المعتدين (النساء:٨٨-٩١).

وحتى يتم التوازن في التفكير، ولئلا يعتقد من يقرأ الآيات السابقة أن الباب مفتوح لاستباحة الدماء عند أدنى شبهة يأتي القسم السادس ليعيد التوازن في الفكر، حيث يملتئ بالقوانين التي تعظم الدماء المصونة سواء أكانت دماء المسلمين أم المسالمين:

القسم السادس: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي: حفظ الدماء الإنسانية وحراستها من أهم دلائل الإيمان، والتحذير من التفريط فيها تحت ذريعة تطبيق السياسة الأمنية أو العسكرية (النساء:٩٢-٩٤) .

ويعود التوازن مجددًا، فربما شعر القائمون على الأمن بالقلق الشديد نظرًا لما سمعوه من عواقب التعدي على الدماء الإنسانية، وقد يفضي بهم هذا إلى ترك أهم وظائف الحفاظ على الأمن الداخلي والسلام العالمي، وهي الجهاد في سبيل الله، وهنا يأتي القسم السابع ليعيد هذا التوازن:

القسم السابع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:

تعظيم مكانة المجاهدين القائمين على حراسة الجانب الأمني، والحفاظ على حقوق المستضعفين (النساء:٩٥-٩٦).

ولتحقيق السلام العالمي الحقيقي لا بد من أن يغادر المظلومون والمضطهدون أرض الظلم المجرم حتى تتمكن قوى العدل من أن تقوم بعملها في تحقيق العدل، وردع الظالمين، ولذا فصَّل الله أوضاع الذين لم يهجروا أرض الظلم ويهاجروا إلى أرض العدل في القسم الثامن.

القسم الثامن: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي.

تعظيم مكانة المهاجرين في سبيل الله إلى أرضٍ تحفظ فيها الكرامة الإنسانية وفق النظام الإلهي (النساء:٩٧-١٠٠).

هذا المحور الرحيب جمع بين السياسات الأمنية والعسكرية وبين سياسة صنع الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وكل ذلك لتحقيق البث الإنساني (الحياة والاستقرار والانتشار والإعمار)، وقد ختمه الله بما يوقظ

الغافلين الذين يظنون أن هناك تناقضًا أو عدم اجتماعٍ بين الصلاة وبين القيام بأعباء الحياة، فكان:

القسم التاسع: من مبادئ استراتيجية صنع الأمن المجتمعي، والسلام العالمي:

الصلاة من أهم الدعائم الأمنية وهي أهم مقومات البث الإنساني، والعبودية الصادقة، والجمع بينها وبين سياسة أخذ الحذر (النساء:١٠١-١٠٤).

وهنا تجد التأكيد على أهمية الصلاة لتشكل أحد أعمدة الحل في سياسية إحلال السلام، وإقامة الاستراتيجية الأمنية والعسكرية كما وجدت أن الله جل ذكره أشعرك بأهمية الصلاة في القضايا الاجتماعية في الأسر الأربع (المركزية والمتوسطة والعامة والإيمانية).

فما أجلَّ القرآن.. ما أعظم بصائره التي تنير للإنسانية الدروب.. كم تشعر النفس بالارتفاع في ذرى الضياء عندما تجد في آياته تلك الآلاء.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الخامس والمحور السادس).

دعنا نستعِدْ معًا الكوكب الدري الذي أضاء في المحاور السابقة؟

لقد أمدتك المحاور السابقة بالتنظيم الإلهي المدهش للبث الإنساني في الأرض، فأسست تلك المحاور: الأسرة المركزية، والأسرة المتوسطة، والأسرة الإنسانية العامة.. وهكذا يتحقق (بث الحياة الإنسانية)، وقد رأيت القوانين التي تعطي كل ذلك حقِّ حقَّه في صورة مبهرة من التنظيم الدقيق.

كان ذلك في المحاور الثلاثة الأولى، ثم انتقلتْ بك بصائر سورة النساء في المحور الرابع نقلة نوعية لتأسيس الإدارة الراشدة التي تؤدي حقوق الإنسانية لأصحابها بأداء الأمانات إلى أهلها، وتحكم بالعدل، ثم جاء المحور الخامس ليرفد (بثَّ الحياة الإنسانية) بما يلزمها من إقامة المجتمع على مبدأ الأمن الداخلي، والسلام العالمي، وذلك يقتضي النهوض باستراتيجية (أخذ الحذر) وما ينبثق عنها لتحقيق هدف حراسة الدماء الإنسانية، ونصرة المستضعفين، وأداء الأمانات إلى أهلها أي توزيع الحقوق الإنسانية إلى أصحابها.

هنا يأتي السؤال: فإن نشب النزاع بين أطراف من الأسر الأربع ولم يستطع المجتمع المحيط السيطرة عليه فما الحل؟ وإن نشب النزاع بين أطراف الإدارة الراشدة (السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة الرقابية،

والخبراء) فما نصنع؟ وإن استعر النزاع بين الإدارة الراشدة وبقية أفراد الإنسانية، فما السبيل لضمان بث الحياة الإنسانية؟ وكذلك لو نشب النزاع بين الإدارة الراشدة وبين الأمم الأخرى التي أقام المحور الخامس العلاقات معها على أساس السلم.. فما الحل إزاء ذلك كله؟

هنا يأتي **المحور السادس** ليتبوأ مقعده الصادق ضمن محاور السورة المتصلة، فينبئك عن: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء:١٠٥-١٣٦)، **فتبرز** السلطة الأرضية الأخيرة التي تحمي القسط في الحياة الإنسانية، وترد الحقوق إلى أصحابها.

المحور السادس: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء:١٠٥-١٣٦)

وليحقق هذا المحور هدفه فقد انقسم إلى الأقسام الآتية:

بدأ المحور **بالقسم الأول** الذي يفصل أهم القوانين القضائية التي تضمن حق المظلومين (النساء:١٠٥-١١٣)، ويلفت نظرك أن الخطاب فيه موجه إلى النبي ﷺ مباشرة لمعاتبته في أسلوبه القضائي، وليعلمه الله ما لم يكن يعلم من الآداب القضائية التي تضمن حق المظلومين بأحسن طريق.. فإذا كان الخطاب بهذه الصورة لخليل الحق وسيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المعصوم من الجور فكيف ينبغي أن تكون عليه صورة التحري عند غيره؟.

ولكن القضاء وحده لا يستطيع أن يقوم بمهمة أداء الحقوق إلى أصحابها لاتساع النزاع مع توسع بث الحياة الإنسانية، وهنا يأتي:

القسم الثاني: بثُّ الحياة الإنسانية يقتضي إقامة الجهود الفردية والمؤسسية التي تهتم بالمجتمعات، وتعزز وظيفة القضاء في القيام بالقسط، والتحذير من التنظيمات المضادة التي تشاق الحياة القويمة (النساء:١١٤-١١٥).

ولا يتم القيام بالقسط، ولا تكتمل خطة (البث للحياة الإنسانية) إلا بمعرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تعصم الإنسانية من الوقوع في فخاخ عدوٍّ متربصٍ لا تراه بعينيها، ولذا كان:

القسم الثالث: حق العالم في معرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تحرف الإنسانية عن وجود مرجعية دستورية قضائية نقية، وتجعلها عرضة للافتراس الشيطاني (النساء:١١٦-١٢٢).

وقد تتفاخر المكونات الإنسانية بالعنصرية النسبية، أو بعنصرية القوة، أو المال، ويجعلونها معيار التحكم بالآخرين، وأساس إصدار الحصانة من المساءلة القضائية، وامتلاك الفيتو الدنيوي والأخروي..

وهنا يبين الله جل جلاله غير ذلك في:

القسم الرابع: العمل أساس القسط في الحقوق الحيوية، والفصل القضائي، وأسس النجاة من الخطة الشيطانية، والفوز بنعيم الاصطفاء الإلهي (النساء:١٢٣-١٢٦)

وفي هذا الموقع من السورة حيث المحور القضائي تجد الأمر في غاية الإحكام والمناسبة للكلام عن حقوق المستضعفين من النساء والولدان التي سبق ذكرها في المحور الأول والخامس.. ولكن لماذا إعادة ذكرها هنا؟

يظهر أن ذلك ليكون لها اهتمام خاص من قبل السلطات القضائية، ولذا جاء القسم الخامس معقودًا للكلام عن حقوق النساء والأطفال عامة، واليتامى منهم خاصة:

القسم الخامس: من أهم أسس القسط في الواقع الإنساني: تطبيق فتاوى الانتصار الحقوقي والقضائي للنساء والأطفال (النساء:١٢٧).

لقد ذكر القسم الخامس ضرورة الاعتناء بحقوق النساء بصفة عامة وفق التقسيم الحقوقي الذي تجده متلوًا في الكتاب، إلا أنه من حقك أن تسأل عن أمر عجيب في النظم القرآني: لماذا جاء الكلام عن نشوز المرأة في الآية (٣٤)، بينما لم يذكر نشوز الرجل هناك؟

هنا ترى القسم السادس يفصل ما يتعلق بنشوز الرجل، ولكن لماذا تأخر من المحور الثالث ليكون في **المحور السادس**..

الله أكبر كم في الفتح التدبري للقرآن المجيد من عجبٍ!

أما ابتداء فقد ذكر الله حقوق المرأة، وحذر من نشوز الرجل وتعسفه مع المرأة أو اضطهاده لها وشدد عليه في ذلك، فما سبق هذا الموضع فهو في حقوق المرأة ونصرتها من أي اضطهاد محتمل يمكن أن يقوم به الرجل

ضدها كما في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ (النساء: ٤)، وفي قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)

ثم أخر تفصيلًا حقوقيًّا يتعلق بنشوز الرجل على زوجته إلى موضعه المناسب، حيث لا يقدر على هذا التفصيل الموزون إلا الحكيم الخبير! ولعلك ما زلت متلهفًا: لماذا تأخر؟

لقد تأخر لأن الرجل يملك القدرة الاجتماعية والإنسانية في الغالب ليتعامل مع نشوز المرأة، أما المرأة فإنها قد لا تستطيع ذلك بحكم الواقع، فلا بد من جهة تعينها على الانتصار عليه، ولذا كان الأنسب أن يكون الكلام عن نشوز الرجل في المحور القضائي لئلا يغترَّ الرجل بقوته الاجتماعية أو الإنسانية في الطغيان على حقوق المرأة، وليكون من مهمات القضاء إنشاء أقسام مستعجلة تفصل في حقوق المرأة التي تخاف نشوز زوجها، ولذا كان:

القسم السادس: النساء بين الاستغلال الشيطاني، والانتصار القضائي: الانتصار الحقوقي للمرأة عند نشوز الزوج، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية بعد الفراق (النساء:١٢٨-١٣٠).

وإذا كانت القوانين القضائية في أهم قضايا بث الحياة الإنسانية قد استقرت من خلال الأقسام السابقة، فإن ذلك لا يعني الوصول إلى القسط في الحياة الإنسانية بسهولة، إذ يمكن للمتحايل أن يَدُعَّ صاحب الحق بتحايله أو مكره أو تجاهله أو تعسفه أو ليه للقوانين أو ادعاء عدم وجوب القسط مع غير أهله أو أهل ديانته، وهنا ترى الختم المناسب لهذا المحور بـ:

القسم السابع: أعمدة الحياة الحقوقية العالمية السعيدة التي تمنع التحايل على القضاء (النساء:١٣١-١٣٦):

العمود الأول: العمود القلبي عبر تعظيم الله، الذي يولد التقوى، ويبني الضمير الحي (النساء:١٣١-١٣٤).

العمود الثاني: العمود التطبيقي القانوني الملزم عبر القيام بالقسط بغض النظر عن الظالم والمظلوم قربًا

وفقرًا وغنىً ومكانة، وهذا العمود هو المركز الذي يدور حوله القضاء(النساء:١٣٥).

العمود الثالث: العمود الإيماني العقلي المؤدي إلى قيام العدل العالمي عبر الإيمان الكامل، وليس الإيمان المبعض ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ (النساء:١٣٦).

وبعد هذا الاتصال: ألم تنفتح المغلقات؟ لقد استبان لك أن وجود هذه الآيات المتعلقة بالتقوى وأركان الإيمان لم تكن حشوًا، ولا تجميعًا لكلام إثر كلام.. بل جاءت بعد التفصيل الحقوقي لنشوز الرجل لتكمل التسديد الحقوقي، وتضعه في موضعه المناسب؛ إذ مثلت أهم الأعمدة التي يقوم عليها أداء الحقوق إلى أصحابها حيث تحمل الإنذار الواضح لأصحاب التحايل القضائي والقانوني.

المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور السادس والمحور السابع):

لقد رأيت البنيان المتكامل المدهش أمامك ماثلًا ..أي بينان؟

إنه بنيان (بث الحياة الإنسانية) الذي يعني هذه الرباعية المجيدة: (الحياة، والاستقرار، والانتشار، والإعمار)، وهذا يعني خامسة ضرورية هي: إعطاء الحقوق الإنسانية لأصحابها (أداء الأمانات إلى أهلها)

ولذلك رأيت تفصيلًا لكل شيءٍ في الحياة الإنسانية.

فالمقدمة تكلمك عن أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بث الحياة الإنسانية) (النساء:١) التي تعني: الإظهار (إظهار الإنسانية من العدم)، والاستقرار، والإعمار، والتكاثر والانتشار، ثم تأتيك المحاور تترى كلما جاء محور أظهر لك التقنين الشرعي المجيد لتحقيق هدف (بث الحياة الإنسانية).

فالمحور الأول تجد فيه كلامًا وافيًا لفترة (ما قبل نشوء الأسرة) حيث تأتيك القوانين التي تنصر حقوق الأطفال، وحقوق النساء في الزواج والمال، ثم تدمجهم ضمن مكونات المجتمع المختلفة ليحصلوا على حقوقهم في تكوين الثروة المالية من الإرث على أساسٍ من العدل.

والمحور الثاني: يحدثك عن الأسرة المركزية، وكيف تحميها من الخيانات الزوجية، وكيف تكونها حتى

تأتلف مع الأسرة المتوسطة، وكيف تؤدي للزوجة حقوقها.

ويخبرك المحور الثالث عن (الأسرة المركزية وبث الحياة الإنسانية): التنظيم الإلهي للأسر الإنسانية الثلاث (المركزية والمتوسطة والعامة).

وأما المحور الرابع فينبئك عن (الإدارة الراشدة وتنظيم الحقوق الإنسانية)، حيث تجد فيه حماية بث الحياة الإنسانية بتكوين الإدارة الراشدة التي تؤدي الحقوق إلى أصحابها.

وأما المحور الخامس: فتجد فيه التفصيل لإكمال عملية بث الحياة الإنسانية مما يقتضي الاستقرار بحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي، بناء المجتمع الحقوقي المدني على مبدأ الأمن المجتمعي والسلام العالمي، وذلك يقتضي حفظ المجتمع بتطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر من الشرور المختلفة، ونصرة المستضعفين، والبحث عن أرض العدل والكرامة .

فإن حدث النزاع بين أي جهة من الأطراف السابقة يجيئ المحور الحقوقي القضائي، وهو المحور السادس ليفصل لك ما يتعلق بالسلطة الأرضية الأخيرة التي تحمي القسط في حياة البشرية، وترد الحقوق إلى أصحابها

هكذا يتحقق (بث الحياة الإنسانية) عبر الإظهار، والاستقرار، والإعمار، والتكاثر والانتشار بصورة عادلة مقسطة تؤدي الأمانات إلى أهلها، وتعطي الحقوق لأصحابها.

فماذا بقي بعدُ؟

لقد بقي الحديث عن أصناف الإنسانية الذين يحاولون تدمير بث الحياة الإنسانية لتأخذ على أيديهم عسى أن يهجروا عدوانهم ويتركوا جناياتهم، ولتحذرهم الإنسانية على نفسها، وهنا يأتي المحور الأخير وهو:

المحور السابع: أصناف الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم (النساء:١٣٧-١٧٣)

هذه الأصناف لا تخلو من أن تكون داخلية أو خارجية، ولذا انقسم المحور إلى ثلاثة أقسام تعبر عن أصناف ثلاثة، فأما الصنف الداخلي، فقد بدأ هذا المحور بداية منطقية بالكلام عنه باعتباره أسوأ هذه الأصناف

وأردأها: إنهم المنافقون المخادعون الذين يظهرون الإيمان لزيادة النكاية في بني الإنسان، فكان:

الصنف الأول: المفسدون من (المسلمين) وهم قوى النفاق المتذبذبة بين الكفر والإيمان، وهم الصنف الأشد خطورة في التلاعب بالحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٥٢)، وانقسم الكلام عن هذا الصنف إلى فصلين:

الفصل الأول: أهم صفات قوى النفاق التي تمتص الحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٤٣).

ووجود هذه الفئة السيئة بين القوى الصالحة كفيل بقلب الموازين الثقافية والفكرية رأسًا على عقب؛ إذ قد يتسببون في نزول العذاب نظرًا لتلاعبهم بالحقائق، فيوجهون الإنسانية إلى بطر النعمة وارتكاب أعمال الفسق، والجهر بالسوء ونشره، وهنا يأتي القسم الثاني ليبين الله الرحمن الرحيم أنه لا يعذب عباده إلا أن يفعلوا ما يستوجب العذاب، فكان:

الفصل الثاني: حق البشرية في معرفة العوامل التي تحفظ من كيد المنافقين، وتمنع من نزول العذاب، وفشل الدول، وتدمير الحضارة (النساء:١٤٤-١٥٢).

لقد استحق المنافقون أن يذكرهم الله في فصلين كاملين مفصلًا أحوالهم، ثم ذكر الله الصنف الثاني المتلاعب بحقوق البشرية في تقوى ربها، وإقامة حقوقها في بث جنسها، وهذا الصنف ذكره الله في القسم الثاني من المحور:

الصنف الثاني: المفسدون من (اليهود) (النساء:١٥٣-١٧٠)، ولأهمية هذه الفئة ولتأثيرها في مجريات الأحداث على مستوى الإنسانية، وخاصة على النصارى، ولأنها أول أمة بعث لها نبي ليجعلها أمة حرة متمدنة مستقلة، فقد تفرع الكلام عنها إلى خمسة فصول منطقية جاءت مرتبة على صراط مستقيم:

الفصل الأول: أسوأ الانتهاكات التي اقترفوها في حق أنفسهم والعالم، مما تلاعبوا فيه بالحقوق الإنسانية (النساء١٥٣-١٥٥).

الفصل الثاني: أسوأ انتهاكاتهم ضد العالم النصراني (النساء:١٥٦-١٥٩)، ولماذا العالم النصراني خاصة؟ أليس هذا من إعجاز القرآن المجيد؟ أليس من الإعجاز أن يخصص القرآن حيزًا معتبرًا لبيان انتهاكات اليهود

ضد العالم النصراني؟ لقد علم الله -تعالى جدُّه- أن متطرفي اليهود سيحاولون اختراق العالم النصراني، وتغييره لصالح خرافاتهم وامتصاصهم لدماء البشر، فجاء هذا الفصل في موضعه... ولماذا العالم النصراني أيضًا؟

للتأثير العالمي المدهش الذي تجده للعالم المنتسب إلى النصرانية على مستوى الأحداث الإنسانية، ولذلك استحقوا أن يُفرَد لهم حيزٌ يرون فيه تفصيلًا دقيقًا لانتهاكات اليهود ضد أهم مقدسات النصارى، ففي هذا الفصل ترى دفاعًا لافتًا للأنظار عن المسيح وأمه ٣ مما لا تجده عند النصارى، ولعل التحريف والتخريف الذي يعشعش على عقائد كثيرٍ من النصارى ساعد في قدرة متطرفي (اليهود) على اختراق العالم النصراني بكل سهولة.

الفصل الثالث: انتهاكات المفسدين من اليهود في الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية ضد أنفسهم، والعالم (النساء:١٦٠-١٦١).

الفصل الرابع: الإشادة بالفئة المؤمنة من اليهود، وجعلهم أنموذجًا للناس(النساء:١٦٢).

وذلك لإقامة القسط في تصنيف العالم حيث يأتي الفصل الرابع ليخبرك عن الفئة المؤمنة من اليهود، حيث يُساق الثناء على استقامتهم على دين موسى عليه السلام ليكونوا أنموذجًا صادقًا للناس (النساء:١٦٢).

الفصل الخامس: حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب (النساء:١٦٣-١٧٠).

فقبل الانتقال إلى الصنف الثالث من أصناف المتلاعبين بحق بث الجنس الإنساني في الأرض كان لا بد من ردٍّ تفصيلي حول تشويش متطرفي اليهود ومن يلعبون بهم ممن ينتسب إلى النصرانية والإسلام، ولذا جاء القسم الرابع ليجلي لنا حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب.

الصنف الثالث: المفسدون من (النصارى) (النساء:١٧١-١٧٣).

ليكون الكلام عنهم في موضعه، فهم في أحداث العالم الجسيمة غالبًا ما يكونون في مجالٍ ليتلاعب بهم منافقو المسلمين، ومتطرفو اليهود.

وبعد هذا النظام البديع لمحاور السورة.. إنه النظام الذي تناسقت أجزاؤه، واتصلت على أجمل وجه

أعضاؤه تأتي.

الخاتمة:

حق العالم في التعرف إلى الكتاب الحق الذي يقيم بنيان الحياة البشرية ويحل مشاكلها، فيجمع بين العقل والعاطفة، دون غلوٍ في أحدهما، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة لحماية الإنسانية من الضلالة (النساء:١٧٤-١٧٦).

فبعد أن طافت بك السورة في أفنانها الرحيبة، ووضعت لك خطة محكمة لبث الحياة الإنسانية، تأتي الخاتمة على صورةٍ غير معتادة في كل خاتمة، حيث تجد فيها بيانًا لأعظم حقوق العالم، وهو حق التعرف إلى الكتاب الحق الذي يحل مشاكل البشرية، فيجمع بين العقل والعاطفة، دون غلوٍّ في أحدهما، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة لحماية الإنسانية من الضلالة (النساء:١٧٤-١٧٦)، وذلك لتستمد منه الإنسانية نظمها وقوانينها وتشريعاتها، وانقسمت الخاتمة بصورةٍ فريدة إلى قسمين.

فأما **القسم الأول** فتجد فيه الإعلان العالمي للدستور الإلهي الخاتم الذي يجمع بين المعجزة والمنهج ويُقَدِّم الحلول الحقيقية للبشرية (النساء:١٧٤-١٧٥).

وأما **القسم الثاني** فتلمس فيه الختم ببيان مسألة الكلالة وهي مثال بارز على حماية الشريعة للانتشار البشري، والرعاية للأسرة الإنسانية، والتفصيل الحيوي التشريعي المدهش للكتاب الذي جمع بين البرهان المؤيد والنور المبين (النساء:١٧٦).

وهنا ترى أن الختم ختم تقنيني محض يبين دوران تشريعات السورة حول بث الجنس الإنساني، وإقامة الحياة الإنسانية، وخُتِمَ هذا الختم ببيان المصدر الحق الذي ينبغي للبشرية اللجوءُ إليه لئلا تقع في (الضلالة) أي في التيه الفكري، والهلكة المادية، فقال الله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ (النساء: ١٧٦).. أَعِدْ هذا الختم لترى فيه مقدار الرحمة الإلهية بالبشرية.. أَعِدْه لترى فيه أهم الأهداف التشريعية للقرآن المجيد: بيان الطريق للإنسان الحر المختار عساه يبصر ما يُمَكِّنُ جنسه من الحياة السعيدة المقسطة في الدنيا.. كأن الله يقول للإنسانية: أنا بينت لكم ما يحميكم من الضلالة مما لا تعلمونه لأني بكل شيء عليم.. يخبرهم

عن رحمته ومحبته الخير لعباده عسى أن يطبقوا ما لم يحيطوا به علمًا؛ فإن سيدنا علي ﷺ يبين لنا شيئًا من الطبيعة النفسية للإنسان فيقول: «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا، وَأَحِبَّاءُ مَا أَلِفُوا»، هنا تعلم لماذا تجد المثاني اللفظية والمعنوية [٢] تتجدد في السورة لتريك هذه الإرادة الإلهية الرحيمة بالإنسانية.

ابتداء من قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١) ثم انتقل منها إلى حقوق الأطفال عامة واليتامى خاصة مما تجده في قوله تعالى جده: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ (النساء: ١١)، وفي السبيل نفسه تجد الله يثبت أركان الأسرة بعلمه الواسع بالإنسانية، ويبين رحمته بالإنسان الجاهل فيقول: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

ومن هذه الآيات تعال إلى الآيات التي تبين المقاصد الإلهية من هذه التشريعات في صورة جامعة تبين رحمته العظيمة بالبشر حيث يقول ربنا جل مجده: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٢٦ – ٣١).

وكما تحميهم هذه التشريعات من المجرمين الذين يتبعون الشهوات من الإنس فإنها تحميهم من العدو الخفي، ويقول الله مبينًا ذلك: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣).

ولا يقف الأمر عند هذا التحبب الإلهي لعباده، والرأفة البالغة بهم حتى يؤكد لهم أنه لا يظلم عباده في أدنى شيء، لكنه يضاعف الحسنات لترجيح موازين العباد، ويهب من لدنه أجورًا دون أن يقابلها عمل إنساني، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

---

[٢] المثاني: جمع مثناة، وهي ما تكرر إما لفظًا وإما معنى.

ولا تقف الرحمة الإلهية الحكيمة عند ذلك حتى يفتح الله لعباده باب الأمل بغفرانه لما دون الشرك من الذنوب ولو كانت كبيرة لمن يستحق ذلك، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨).

ويخبرهم بمدى وفاء التشريعات التي أنزلها عليهم بمتطلبات الخيرية والحُسْن، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩)، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (النساء: ٦٦، ٦٧).

وترى فتح باب التوبة والاستغفار من كل الذنوب مثاني مبثوثة في السورة كما في قول الله تعالى مجدُه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء: ٦٤).

وإذا كان النبي ﷺ قد مات فإن الله التواب حي لا يموت، فيقول الله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء: ١١٠)، ويخبرهم -عزَّ جارُه- أنه لا يريد تعذيبهم، فيقول: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا﴾ (النساء: ١٤٧)، ولأن طبيعة الدنيا تجعلهم غير قادرين على سماعه ولا الكلام معه فإنه يرسل المرسلين ليقوموا بتبليغهم بما هو خير لهم، فيقول الله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ (النساء: ١٦٥)، وينبئهم أن الرسول الخاتم ﷺ جاءهم بالبرهان العقلي، والنور القلبي على أتم وجهٍ تحتاجه البشرية، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ١٧٤).. أليس الانبهار يبلغ مداه عندما تسمع الله يختم ذلك كله بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ (النساء: ١٧٦).

وبعد: ألم ترَ أن الله فصَّل في المحاور التي ضمت سورة النساء من كل شيء موعظة وتقنينًا للتشريعات التنظيمية للحياة البشرية، وبث فيها هدى ورحمة ليتحقق بث الحياة الإنسانية بالقسط.

عد بنا إلى نظام هذه السورة مجدَّدًا لأضرب لك مثلًا على اكتشاف البينة القرآنية المُبهرة:

لماذا بدأت السورة بحقوق الأطفال اليتامى ضمن موضوعها الأكبر (بث الحياة الإنسانية)؟ وما علاقة

القسط في اليتامى ونكاح النساء في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣)؟

أما البدء بالأطفال في الآية الثانية فذلك هو المنطقي في إطار الكلام عن (بث الحياة الإنسانية).. أفليس من الطبيعي أن يُذكر الطفل أولًا؟ الطفل يمثل بداية الإنسانية بعد أن خلق الله النفس الواحدة وزوجها، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، والرجال والنساء إنما تكون بدايتهم باستقبال الحياة أطفالًا مستضعفين يحتاجون إلى الرعاية والعناية، ولأن الوصية في الأولاد عامة ستأتي فقد اهتم المحور الأول باليتامى خاصة لضياع العائل الذي يقوم عليهم، ولكن الأطفال اليتامى خاصة يحتاجون في تربيتهم إلى مساعدة كبيرة لا يقوم بها أحد كما تقوم بها النساء، والأصل أن الأطفال يعيشون مكفولين في أُسَر، وللنساء دورهن الفعال في تربية الأطفال، ولذا ذكر الله شرعية تعدد الزوجات إلى أربع ليقمن بمهامهن في بث الجنس البشري ومنها مهمة الإقساط إلى اليتامى، وليكون ذلك حقًا لهن يحتجن إليه كما يحتاج إليه الرجال، وقد جمع الله معانيَ متعددة تعود إلى هذا المفهوم في هذا النص المركز، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣)، وهنا يظهر لك معنى فريد من معاني هذه الآية المبهرة، كما ترى في هذا الوجه من التفسير المنطقية الضخمة التي اكتشفناها في ارتباط الشرط بجزائه مما تعب كثيرٌ من المفسرين في محاولة إظهاره.. بيد أن جهدهم العظيم المشكور –جزاهم الله خيرًا– قدم لنا معاني ثرية أساسية أفدناها في تدبرنا للآية.. ألم أقل لك: إننا نعيد اكتشاف المعجزة القرآنية؟ وهذا لا يعني نفي المعنى المشهور المذكور عن السيدة الموفقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ إذ ذُكِرتْ في هذه الآية أربعة معانٍ في هذا الارتباط.

ومن جهة أخرى تستطيع بوضوح أن ترى موضوعًا آخر يلوح: إنه موضوع تكوين الثروة المالية للفرد الإنساني.. فهو قوام الحياة.. كيف يمكن تكوين هذه الثروة التي تعين على بث الجنس الإنساني؟ ولذا كان الكلام عنه أيضًا ضمن أوائل الآيات.

واضرب مثلًا آخر على هذا الثراء الشديد الذي تكتشفه في المنطقية الترتيبية القرآنية: فإن الله ذكر الإرث في المحور الأول، وذكر التجارة في المحور الثالث حسب تدبري واستنباطي للمحاور.

يبرز لك الإرث واضحًا بينًا ليُشكل أعظم مصادر الثروة المالية التي يجدها المرء دون عناء، فهو ملك جبري على رغم المورث والوارث، ولا بد من تنظيم تشريعاته ليحقق غرضه في خدمة بث الحياة الإنسانية بدلًا من أن يكون مصدرًا لتداول المال بين فئة محددة، أو لزيادة الظلم في الأرض، وبات من الطبيعي أن يذكر الله حقوق اليتامى والنساء والسفهاء في هذا المصدر المالي الأساسي.

وفق هذا العنوان الجامع: (بث الحياة البشرية) مضت السورة في تأسس الأسر الإنسانية الكبرى، وهي أربع أسر: الأسرة المركزية (زوجان وأبناؤهما)، والأسرة المتوسطة (وتتكون من الوالدين وذوي القربى وبقية ذوي الأرحام)، والأسرة الإنسانية العامة، والأسرة المؤمنة، كما أضاءت السورة الواقع الإنساني بمنح الحقوق للأفراد والمجموعات المختلفة في البشرية وفق أنظمة تفصيلية دقيقة لا تعرفها الأنظمة الجاهلية القديمة والمعاصرة، ولتجدن أثر هذا الموضوع المركزي مؤثرًا على ترتيب الآيات في السور، ولنأخذ ملمحًا من ذلك يفتح مَلَكة التدبر، ويوسع عقلية التفكر، فقد قدَّم الله جل مجده في الآية الثانية عشرة ما كان غير معروف من توريث أبناء الأم، حيث كانت الجاهلية الأولى تستبعدهم زهدًا في سبب الرابطة بهم وهي الأمومة، كما تستبعدهم الجاهلية الأخرى بتفاصيل مختلفة، فقدمهم، وأخر الأقرب من الميت في عرفهم وهم الأخوة الأشقاء، أو لأب؛ لبيان ضرورة إنشاء الأسرة المتكاملة: المركزية والمتوسطة، وقد بينا هناك أنه قدمهم في الذكر لأن النظام الجاهلي كان يهملهم، فلا يمنحهم شيئًا من الإرث، فأنصفهم بتقديم ذكرهم.

وهكذا سترى المنطقية السهلة الممتنعة، وقرب المعنى القرآني مع إبائه كإباء نظم لفظه أن يستطيعه أحد من البشر، أو أن يروم مثله لفظه، وبعد: آلقرآن المجيد خير أمَّا يسطرون؟

وإن أردت أن تشعر بمدى هذا الغِنى الضخم الذي يكتنزه النظم القرآني الفريد، فالتفت إلى الصفحة الأولى من سورة النساء.. لقد حوت ستَّ آياتٍ فقط، لكنها فَصَّلت: ثمانية أسسٍ في علم (بث الحياة الإنسانية)، وقررت لليتامى ستة عشر حقًا، وجعلت للنساء في موضوع حق المرأة في الزواج ثمانية حقوق، وفصلت للسفهاء ثمانية حقوق في الرعاية والعناية.. كل ذلك في صفحة واحدة تكونت من ست آيات.. بم تشعر إزاء ذلك؟ ألا يدهشك هذا التفصيل التشريعي الحقوقي؟

ألا تشعر بأنه يصل إلى حد الإعجاز؛ إذ نزل هذا الكلام على نبيٍّ أمي في أمة بعيدة عن الحضارة والثقافة والتشريع في زمانه؟ فلماذا لا نقدم هذه الرسالة العظيمة إلى المنظمات الدولية التائهة؟ لماذا لا نساعدها في التقنين الراشد لحقوق الفئات الإنسانية المختلفة؟ هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للأيتام؟، هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للنساء؟، لماذا لا نعقد اللقاءات بهم لنخبرهم عن الإيجابيات العظيمة والمكاسب الضخمة التي تكسبها الإنسانية لو طبقت هذه الشريعة الرائعة الربانية التي يقول الله عنها تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

«ولقد قلت في الكتاب عقب ذكر بصائر الآية الخامسة التي فَصَّلت حقوقَ (السفهاء): «أغمض عينيك، وفكر في حال العرب واليهود في المدينة عندما نزلت هذه الآية وما قبلها وما بعدها، وقل لي: **أليست الآية تمثل أنموذجًا للإعجاز القانوني الاقتصادي الاستثماري في القرآن الكريم؟ وهل كان المستوى الفكري للعرب وحتى اليهود يطيق أن يستوعب مثل هذا التفصيل؟**».

فأقبل على تدبر السورة واصطبر عليه، ولا تعجب أن تجد الأمر بالتدبر في هذه السورة حيث يقول الله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وفي التنظيم الإلهي لبث الحياة البشرية ترى التوازن البديع بين متطلبات الجسد، وأشواق الروح، وتجد الإنقاذ للبشرية والرحمة بالإنسانية؛ إذ يرحم الله العبد حيث لا يرحم العبد نفسه، فيقول جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩)، ويحذر تعالى شأنه من نفسيات البخل والرئاء والحسد والجهر بالسوء من القول؛ إذ يحرصون على منع حقوق الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧)، ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النساء: ٥٣، ٥٤)، وهكذا تمضي السورة في الارتقاء بالحياة الإنسانية لئلا تقع أسيرة لجانب تغلو فيه، فيكون عاقبة أمرها خسرًا، فإن الحضارة المعاصرة كالجاهلية القديمة تأسست على:

١) القوة التي تؤدي إلى الغرور والاعتداء.

٢) وتأسست على طلب المنفعة، التي يؤدي الغلو فيها إلى التنافس المذموم والأثرة المدمرة.

٣) وتأسست على جذب وجوه الناس من خلال البريق الإعلامي المثير، مما يؤدي إلى الجدال والصراع، ويثمر النزاع.

٤) وعلى اتباع الهوى الذي يؤدي إلى مسخ الإنسانية لتتحول إلى النفسية السَّبُعِيَّةِ الأنانية المتوحشة.

٥) وعلى القومية والشعوبية التي تنتج التصادم، وتمنع بث الحياة الإنسانية.. ألم يأتك نبأ الحربين العالميتين: الأولى والثانية؟ ألم تر كيف أكلت الإنسانية فيها نفسها باسم الشعوبية والعرقية المتفوقة؟

ولقد قامت الحضارات المادية على منطق حسابي مالي لا حياء فيه، فكان من الطبيعي ضمن شرعيتها الدولية أن تفني أنظمة ملايين الناس، وتفني دولًا، وتأكل قوت مساكين ذوي مسغبة، أو يتامى ذوي مترية.. تفعل تلك الأنظمة ذلك أمام سمع العالم وبصره ثم تبقى شرعيته قائمة، ومغازلة عتاة المادية المعاصرة معلنة.

وفي هذه السورة المباركة تبرز القيمة الإنسانية الحقيقية بُعيد حقبةٍ مظلمة من النظريات العبثية التي تتعامل مع الإنسان باحتقار، وتزعم هذه النظريات المجنونة أن وجود الإنسان مجرد مصادفة عشوائية، فقد ذكر «روبرت أجروس، وجورج ستانسيو) صاحبا كتاب (العلم في منظوره الجديد): أن النظرة القديمة تنكر على الإنسان ما تعتبره مغالاة منه في إحساسه بأهميته الذاتية قائلة: إن كوبرنيكوس قد خلع الإنسان المغرور عن عرشه في مركز الكون، وأن عليه أن يدرك أنه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكبًا تافهًا يدور حول نجم لا شأن له .[٣]

وسعت النظريات المادية الجديدة من الدهرية القديمة فلم تكتف بالتمرد على الله حتى تمردت على الإنسان، وجعلته مجرد حيوان أو مادة، فذهب الفلاسفة والعلماء طرائق قددًا في تحقير البشر ليصلوا من خلاله إلى عدم وجود قصد من وجوده، وينفوا من خلاله وجود خالق له، بدلًا من أن يكون البشر أعظم الأدلة على وجود الخالق جل ذكره، ورأيت الماديين في المعسكرات المختلفة في ضلال بعيد قد سلكوا طرائق قددًا لكنها تجتمع على نزوة الأنانية والعبثية التي لا حدود فيها ولا تنظيم، ويصف ذلك برتراند

[٣] العلم في منظوره الجديد ص٥٣.

رسل فيقول: «لو تخلى الفيلسوف عن برجه العاجي، ونظر في حقيقة الشيوعية لوجد أنها والرأسمالية تنطلقان من نزوة واحدة وهي النزوة المادية»، وتروتسكي المعارض لستالين وصف الحزب الشيوعي بأنه أوجد رأسمالية الدولة [٤].

أما في الرؤية القرآنية فإنك تشعر بالقيمة الحقيقية للإنسانية، وتجد فيها (الغائية) التي تعطي للبشرية المُكَرَّمة معنىً في الوجود، ولقد عبرت عن ذلك سورة (النساء)، فأخبرتك أن الإنسان مخلوقٌ خلقه الله جل ذكره، ثم خلق له زوجه، وأوجد لهما القدرة على بث الحياة الإنسانية زمانيًا ومكانيًا، ونظم له سبيل البث بما يقيم الحقوق بينه وبين بقية جنسه بالقسط.

وفي سبيل (بث الحياة الإنسانية) وفق التنظيم الحقوقي الإلهي سترى في هذا الكتاب الآيات البينات من الكتب الإلهية السابقة وقد صدَّقها القرآن المجيد دلالة على خروجها جميعًا من مشكاة واحدة قبل أن تأتي يد الفسق المحرفة فتتلاعب بنصوص الكتب السابقة، فعند قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٧١) تجد استشهادًا **بإنجيل يوحنا** (٨) الذي ترى فيه قول عيسى عليه السلام: ٤٠ ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم ٤١ أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحدٌ وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله، وأتيت لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني.

وتجدنا نتفيأ ظلال القرآن المجيد فنناديهم تأثرًا بالنداء القرآني لهم، ونقول لهم: يا من تنتسبون للمسيح.. ارجعوا إلى الحق فإن الحق يحرركم من عبوديتكم للخرافات الباطلة.. حرروا أنفسكم من خطيئة الافتراء الكبير على المسيح عليه السلام، فإنكم الآن عبيد لهذه الخطيئة الشنيعة، فقد قال المسيح لمن عارضه من اليهود كما في **إنجيل يوحنا** (٨) ٣٢ وتعرفون الحق والحق يحرركم، ٣٣ أجابوه: إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحدٍ قطُّ. كيف تقول أنت: إنكم تصيرون أحرارًا؟ ٣٤ أجابهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: إن كل من يعمل الخطية هو عبدٌ للخطية.

---

[٤] المسلمون والحضارة الغربية ص٥٦٠.

سورة النساء إيجادٌ للمصالح الإنسانية المتعلقة بالأطفال والنساء والرجال، وحفظ وتنميةٌ لها:

الكليات الخمس وتسوير سورة النساء حول (بث الحياة الإنسانية، والتنظيم الحقوقي لها، وحماية المستضعفين وخاصة الأطفال والنساء من الاضطهاد):

لا يمكنك أمام الحشد المدهش من القوانين الحقوقية الإنسانية التي تفتنك بها سورة (النساء) إلا أن تقرر بأن:

هذه السورة تمثل نورًا متقدمًا مبهرًا يحوط الإنسانية بعنايته ورعايته، ويحفظ لها كرامتها، ويحنو عليها بأفضل الحدود التي تحميها، وتضمن انتشارها، ويحافظ على الكليات الخمس التي دارت حولها الشرائع والحضارات، وهي: الدين، والنفس، والنسل (العِرْض)، والعقل والمال:

فالمحافظة على (الدين) تعني حق الإنسان في الاختيار الفكري العقدي على ألا يمثل عقيدة اعتداء ضد الآخرين، والمحافظة على (النفس) تعني: حق الحياة الكريمة للوجود الإنساني (الإظهار)..

الوجود للنفس يعني إظهارها في هذه الحياة، ثم استقرارها وحمايتها من كل أذى نفسي أو مادي يمكن أن يلحق بها ..ألا ترى أن الله من أول السورة يقول :﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)، والمحافظة على) النَّسْل (تعني المحافظة على حق البشرية في التكاثر والانتشار والاستمرار، والمحافظة على (العقل) تعني حق الإنسانية في أن يكون ذكيًا واعيًا قادرًا على الإعمار، وذلك يقتضي تنمية العقل البشري ابتداء من مرحلة الطفولة ليصل إلى مرحلة (الرشد) في التصرفات وإدارة الحياة، والحماية التامة له من أن تصيبه الآفات بالمسكرات أو المخدرات .. ألا ترى أن السورة تحدثك عن حفظ نفسك وعقلك، فتجد فيها مثلًا:﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ (النساء: ٦)، والمحافظة على (المال) تعني حق الإنسانية في تكوين الثروة التي يستمتع من خلالها بتبادل المنافع الحيوية (الإعمار)، وذلك يقتضي إعانة الإنسان على إيجاد مالٍ يتحرك في الحياة من خلاله، وينميه، ويكون له ذمة مالية مستقلة لا يتمكن أحدٌ من السطو عليه دون وجه حق.. ألا ترى أن السورة من أولها تحدثك عن الذمة المالية

الخاصة باليتامى والنساء. وكل ذلك تدخل فيه المعاني الأربعة لكلمة (بثَّ)، وهي الإظهار (إظهار الإنسانية من العدم)، والاستقرار، والإعمار، والتكاثر والانتشار.

وللمحافظة على الكليات الخمس قسم فقهاؤنا الأحكام المتعلقة بها إلى ثلاثة أنواع: الضروريات، والحاجِيَّات، والتَّحْسِينِيَّات.

والمصلحة الإنسانية التي تحقق ذلك ترجع إلى هذه الأقسام الثلاثة المذكورة، بل ذهب الإمام مالك وبعض الشافعية إلى أنَّ الاحْتِجاجَ بالمصلحة المُرْسَلة فيما يتعلق بالضَّروريات، وإنْ لم يوجد بشأنها دَليلٌ خاص، تجمع كلمة (بث الحياة الإنسانية) هذه المعاني كلها، فهي تعني رباعية متلازمة:

الإظهار أي إيجاد للحياة الإنسانية من العدم، وتعني الاستقرار، وتعني الإعمار، وتعني التكاثر والانتشار، فكل ذلك من لوازم بث الحياة الإنسانية.

كل ذلك تراه في السورة يُقَدَّم إليك بكل سلاسةٍ وبراعةٍ بل بصورةٍ معجزة تأخذك سطوتها، وتهيمن عليك كلماتها..

هنا تعلم لماذا جاء المحور الرابع في السورة ليحدثك عن محاولات الذين يشترون الضلالة لأن تضل البشرية السبيل، وإنك لتجد النسبة مطردة في واقع الإنسانية بين خطين متوازيين واضحين:

الأول: خط المحاربة للهدايات القرآنية.

الثاني: خط المحاربة لأهم الحقوق الإنسانية.

ولك أن تتساءل ببراءة: لماذا أصبحت بعض المؤسسات الدولية والشركات العابرة للقارات أدوات سامة لامتصاص أعظم حقوق الإنسانية في الوقت ذاته الذي تصف فيه الإسلام بأبشع الألفاظ لتزين أمام العالم امتصاصها لدماء البشرية؟

هنا تقدم لك سورة النساء «الحق» الذي تقوم عليه السموات والأرض، وبتطبيقه تُبَثُّ الحياة البشرية بعدلٍ مطلق.. إنها السورة التي تقسم واجبات الحياة بين الرجل والمرأة مع التركيز على إنصاف المرأة دون أن يصل ذلك إلى أن تستغل هذا الإنصاف لتظلم الرجل.

حتى يظهر لك هذا «الحق» الذي تظهره السورة بصورة مدهشة، فسل الكنيسة: لماذا كان الزواج مباحًا في أول الحياة النصرانية للقسس؟ بل لماذا كان تعدد الزوجات شريعة أنبياء العهد القديم؟ ثم لماذا حرمت الكنيسة بعد ذلك الزواج على القسس قبل أن ينتزعه البروتستانت من جديد؟ لماذا تفعل ذلك وهي ترى أن البديل آلاف الحالات من اغتصاب أكابر من الأحبار والرهبان للأطفال؟

وفي المقابل: سل الملحدين الذين اتخذوا داروين نبيًا يفسر الواقع برجم الغيب.. سل الذين اتخذوا الفلسفة الداروينية الاجتماعية، فجعلوا الحياة صراعًا أزليًا ينتصر فيه الأقوى والأشد ظلمًا وليس الأحق ولا الأعدل.. سلهم: أليس ذلك شبيهًا بقصة سفر التكوين حول انتصار يعقوب عليه السلام على من زعموا أنه (الله) تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا؟

هل يجد المهووسون بالحرب النووية في هرمجدون، والجشع الرأسمالي أعظم من أن يقتنعوا إن كانوا ملحدين بعقيدة الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية؟

هل يجدون إن كانوا مؤمنين أفضل من الاقتناع بعقيدة سرقة (يعقوب) البركة والنبوة من أخيه الأكبر عيسو، ومن انتزاع (يعقوب) البركة من (الله) بعد أن غلبه؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وصلى الله على أنبيائه ورسله أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

تأتي سورة (النساء) لتخبرك عن حقوق الأطفال والنساء لأنهم أساس بث الحياة الإنسانية في الوقت الذي ترى أن المرأة لم تستطع الحصول على بعض حقوقها إلا قبل بضع سنين.

والناظر في التاريخ المعاصر يجد من الظلم للمرأة وإقحامها في مجالات عمل لا تناسب طبيعتها وفطرتها، وتشق عليها مشقة شديدة، بينما السورة تقرر إلزام الرجال بأن يكونوا قوامين على الأطفال والنساء ينفقون عليهم الأموال، ويخصص لهم حقوقًا مالية في الإرث وغيره مع تصرف مستقل كامل؟

هل يستوي هذا ومن يعلم البشرية عن وجوب الإنفاق على الأطفال والنساء، ثم يخصص لهم حقوقًا مالية في الإرث وغيره مع تصرف مستقل كامل؟

فهرس المحتويات

التواصل مفهوم شرعي أصيل وتنظيم للعلاقات ١
قراءة في التفسير الكي لسورة النساء ١
محاور سورة النساء والترابط المحكم ١
فالمقدمة: تقرر أهم الأسس الحقوقية التي تضمن (بثَّ الحياة الإنسانية) (النساء:١). ٢
المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المقدمة والمحور الأول) ٤
المحور الأول: التنظيم الإلهي لأموال الأطفال (وخاصة اليتامى) والنساء تقصيدًا لبدء بث الحياة الإنسانية (النساء:٢-١٤)
«بإدماجهم على أسسٍ عادلةٍ ضمن السبب الأول الجبري من أسباب تكوين الثروة، وهو الإرث» ٤
المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الأول والمحور الثاني): ٦
المحور الثاني: التنظيم الإلهي لمؤسسة الزواج (الأسرة المركزية) تقصيدًا لانتشار الحياة (النساء:١٥-٢٥) ٧
المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الثاني والمحور الثالث): ١٢
المحور الثالث: التنظيم الإلهي لحصون استقرار الأسرة المركزية ليتحقق بث الحياة الإنسانية (النساء:٢٦-٤٣) ١٢
الحصون التي تحفظ الاستقرار الأسري ١٣
لمعةٌ في جلال الإحكام في النظم القرآني في هذا المحور: ١٤
المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الثالث والمحور الرابع): ١٥
المحور الرابع: التنظيم الإلهي للإدارة الراشدة تقصيدًا لحماية الإنسانية بإعطائها حقوقها، وحمايتها من أهل الإضلال والنفاق
الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويحاربون قيام الإدارة الراشدة (النساء:٤٤-٧٠). ١٦
المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الرابع والمحور الخامس): ١٧
المحور الخامس: التنظيم الإلهي للاستراتيجية الأمنية والعسكرية لحفظ الأمن الداخلي والسلام الخارجي وحماية
المستضعفين (النساء٧١-١٠٤): ١٨
الإحكام البديع لآيات القرآن المجيد في هذا الموضع: ١٩
المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور الخامس والمحور السادس) ٢٢
المحور السادس: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء:١٠٥-١٣٦) ٢٣
المناسبة والاتصال (قنطرة الانتقال بين المحور السادس والمحور السابع): ٢٦

المحور السابع: أصناف الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم (النساء:١٣٧-١٧٣)..... ٢٧
الخاتمة:..... ٣٠
حق العالم في التعرف إلى الكتاب الحق الذي يقيم بنيان الحياة البشرية ويحل مشاكلها، فيجمع بين العقل والعاطفة، دون غلوٍّ في أحدهما، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة لحماية الإنسانية من الضلالة (النساء:١٧٤-١٧٦). ٣٠
عد بنا إلى نظام هذه السورة مجدَّدًا لأضرب لك مثلًا على اكتشاف البينة القرآنية المُبهرة:..... ٣٢
سورة النساء إيجادٌ للمصالح الإنسانية المتعلقة بالأطفال والنساء والرجال، وحفظ وتنميةٌ لها:..... ٣٨
الكليات الخمس وتسوير سورة النساء حول (بث الحياة الإنسانية، والتنظيم الحقوقي لها، وحماية المستضعفين وخاصة الأطفال والنساء من الاضطهاد):..... ٣٨
فهرس المحتويات..... ٤١